Sirte University Journal of Humanities Vol.13. Issue.1

Sirte University Journal of Humanities **(SUJH)** مجلة جامعة سرت للعلوم الإنسانية

Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/Humanities/index

https://doi.org/10.37375/sujh.v13i1.1348

مفهوم العمران في ضوء مقاصد القرآن.

د. حنان خياطي

khiyatih@gmail.com

مختبر دراسات الفكر والمجتمع/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة/ المغرب.

الملخّص

كل نشاط يتصل بالقرآن الكريم ينبغي أن يسترشد بمقاصده وغاياته الكبرى، فهذه المقاصد والغايات هي وجهة كل نشاط حياتي أو حضاري يستمد من القرآن الكريم منهجه، ويروم تحقيق رسالته في هداية الناس للتي هي أقوم.

تعالج هذه الورقة موضوع المقاصد العليا الحاكمة في القرآن الكريم ودورها في بناء الحضارة والعمران، من خلال تحليل مفهوم مقاصد القرآن، واستجلاء أهميتها، وتبيان الصلة الوثقى بين المقاصد والعمران، فلمقاصد القرآن دور حيوي في استجلاء المكانة العليا للقرآن الكريم، وإسهام بارز في بناء الحضارة والعمران، بيد أنها لم تنل حقها من التنظير والتأصيل.

الكلمات المفتاحية:

مقاصد القرآن، الحضارة، الاستخلاف، التوحيد، العمران.

Dr. Hanane khiyati

Thought and Society Studies Laboratory - Faculty of Letters and Human Sciences - El Jadida/ Morocco

Abstract

Every activity related to the Holy Qur'an should be guided by the purposes and objectives of the Holy Qur'an. These goals and objectives are the direction of each life or activity derived from the approach of the Holy Qur'an, and aims to achieve its mission in guiding people to what is most appropriate.

This paper deals with the subject of the higher purposes of governance in the Noble Qur'an and their role in building civilization and urbanization, by analyzing the concept of the purposes of the Qur'an, clarifying their importance, and clarifying the close relationship between the Noble Qur'an. purposes and urbanization. However, she did not get her due from theorizing and rooting.

Keywords

the purposes of the Qur'an , the caliphate, monotheism, civilization, urbanization

المقدمة

العمران هو تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الله في انسجام وتناغم مع الرؤية التوحيدية الكونية، لتحقيق الوظيفة الوجودية الكبرى، وهي الاستخلاف في خط العبودية لله وحده؛ لأن من متعلقات الاستخلاف التكليف، ومن جملة التكليف عمران العالم وفق شرعة الله ومنهاجه.

وقد عدّ الراغب الأصفهاني عمارة الأرض وعبادة الله تعالى وخلافته (الاصفهاني ، 2007م) دليلا على إنسانية الإنسان، وإلا "فمن لا يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه " (الاصفهاني ، 2007م)، كما "لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس ...لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية" (الاصفهاني ، 2007م).

العمران أيضا مقصد عام من مقاصد الشريعة، فكما يقول علال الفاسي: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل و العمل، وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع"(الفاسي، 1993م)

ورد الاعتبار لمبحث العمران هو واجب ملحٌّ، نظراً لما تمرّ به أمتنا الإسلامية من ضعف ذاتيّ، وعدم تمكين واستضعاف من الآخرين وتخلف عن ركب الحضارة، والإخلاد إلى الأرض، واتباع الأهواء، وعدم بذل الجهد في إعداد المستطاع من القوة المادية، والتقصير في القوة الروحية والنفسيَّة التي يُفترض أنهم حاملو أمانتها، والتقصير في تحري أسباب الرفعة أمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر.

مشكلة البحث:

بناء على ما سبق نطرح الأسئلة التالية:

-ما المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، (مفهومها ودلالتها)؟

-ما الصلة بين المقاصد والعمران الحضاري؟

-ما دور تلك المقاصد في بناء الحضارة والعمران؟

أهداف البحث:

يرمي البحث إلى تحقيق الهدفين الآتيين:

-الكشف عن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، واستجلاء حجم دورها وموقعها ودرجات إسهامها في العمران والتدبير الحضاري.

_الوقوف على آثار مقاصد القرآن وتجلياته، في تحديد معالم علم "العمران البشري".

منهج البحث:

فرضت طبيعة هذا البحث أن يتقاسمه منهجان:

المنهج الوصفي التحليلي: من خلال جمع المعلومات والحقائق وتفسيرها وتحليل محتواها وفق مسارات البحث.

المبحث الأول: مقاصد القرآن وسنن العمران: المفهوم والدلالة:

المطلب الأول: الدلالة المعجمية (المقاصد في اللغة والاصطلاح):

1-المقاصد لغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس:" القاف والصاد والدال أصول ثلاثة، يدُّل أحدها على إتيان شيء وأَمُّه، والآخر على كسر وانكسار، والآخر على اكتناز في الشي، فالأصل: قصدته قصدا ومقصدا، ومن الباب: أقصده السهم، إذا أصابه فقتل مكانه، وكأنه قيل ذلك، لأنه لم يحد عنه، قال الأعشى:

فأَقْصدها سَهْمِي وقَدْ كَان قَبْلَهَا

لأَمْثَالِها مِن نِسْوة الحيّ قَانِصا" (ابن فارس، 2001م)

وفي مختار الصحاح:" القصد إتيان الشيء، تقول: قصده وقصد له، وقصد إليه، كله بمعنى واحد " (الرازي، 2003م).

وفي معجم لسان العرب:" ...والقَصْدُ: الاعتمادُ والأَمُّ، قَصَدَه يَقْصِدُه قَصْداً، وقصَدَ له، وأَقْصَدَني إليه الأَمرُ، وهو قَصْدُكَ وقَصْدَكَ: أَي تُجاهَك ... والقَصْدُ: إتيان الشيء، تقول: قَصَدْتُه وقصدْتُ إليه بمعنًى....وقَصَدْتُ قَصْدَه: نحنحوه ...قال ابن جني: أَصل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوكل والنهودُ والنهوضُ نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أَو جَوْر. هذا أصله في الحقيقة، وإن كان جميعا".في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل ألا ترى أَنك تَقصِد الجَوْرَ تارة ،كما تقصد العدل أُخرى؟ فالاعتزام والتوجه شامل لهما جميعا" (ابن منظور الافريقي)

2-مقاصد القرآن اصطلاحا:

لا نجد عند القدماء تعريفا لمقاصد القرآن، وإنما وردت إشارات متفرقة إليها في ثنايا المباحث المقاصدية بمعناها التشريعي، كقول العز بن عبد السلام:" ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها " (بن عبد السلام، 2002م).

ولكن بعض العلماء استخدموا مصطلح "مقاصد القرآن" للدلالة على المحاور الكبرى والقضايا الأساسية التي دارت عليها سوره وآياته.

يقول الإمام الغزالي عن مقاصد القرآن:" انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهمة. وثلاثة: هي الروادف والتوابع المغنية المتمة...." (الغزالي، 1986م)

وقال الرازي:" إن مقاصد القرآن التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد "(الرازي ، 1981م)

وقال السيوطي في الاتقان: " ...ولما كانت سورة الفاتحة هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده ...فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن" (السيوطي، 2004م).

وقال الألوسي: " إن مقاصد القرآن: التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد "(الألوسي، 2002م)

أما ابن جزيء الكلبي فقد ذكر أن مقاصد القرآن على التفصيل سبعة: " وأما على التفصيل فاعلم أن معاني القرآن سبعة: هي علم الربوبية، والنبوة، والمعاد، والأحكام، والوعد، والوعيد والقصص "(الكلبي، 1989م).

فلفظ " المقاصد " هنا صريح الدلالة على المحاور والقضايا الأساسية التي تمَّنها القرآن الكريم.

أما المحدثون فلم يكن اهتمامهم بمقاصد القرآن يستقل عن اهتمامهم بمقاصد الشريعة، وقد تحدث بعضهم عن مقاصد القرآن العامة، ومن بينهم الأستاذ علال الفاسي الذي تحدث عن مقاصد نزول القرآن بقوله: " والقصد العام من نزول القرآن هو هداية الخلق، وإصلاح البشرية، وعمارة الأرض "(الفاسي، 1993م)

وحاول ابن عاشور إجمال مقاصد القرآن الكريم فذهب إلى أن القرآن أنزله الله تعالى -كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية "(ابن عاشور ، 1984)

وعرّف عبد الكريم حامدي مقاصد القرآن بأنها: " الغايات التي أُنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد، فالغايات المراد بها المعاني والحكم

المقصودة من إنزال القرآن وهذه الغايات تهدف إلى تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل "(الحامدي، 2008م).

المطلب الثاني: الدلالة المعجمية (اللغوية والاصطلاحية) للفظ العمران: ابن السكيت، 1998م، كتاب الألفاظ، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ص 26.

* **–عبد الرحمان الثعالبي، 1997م، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ط 1، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.**

* **–ابن دريد، (1411هـ–1991م)، الاشتقاق، ط 1، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجبل، بيروت، مادة عمر، ص14.**

1- العمران اسم ومصدر كما ذكر ابن فارس (ابن فارس، 2001م) وهو يؤول إلى مادة "عمر" والعين والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على بقاء وامتداد زمان، والآخر على شيء يعلو، من صوت أو غيره (ابن فارس، 2001م)

2- ومدار مادة "عمر" في معاجم اللغة على المعاني الآتية:

أ- القبيلة: والعمارة الحي العظيم يقوم بنفسه... فمن فتح " العين" أراد التفاف الحي بعضه على بعض، من كسرها جعله بمنزلة عمارة المنزل، أي عمروا الأرض فهم لها عمار (ابن السكيت، 1998م).

والعمارة: القبيلة العظيمة من العرب. قال الثعالبي:

لكل أناس من معد عمارة عروض إليها يلجئون وجانب (الثعالبي، 1997)

ب- الحفظ: قال الأصفهاني: العمار ما يضعه الرئيس على رأسه عمارة لرئاسته، وحفظا له ريحانا كان أو عمامة، ومنه سمي العمران كذلك لما يحفظ به حياة الإنسان من الفساد والخراب.

ت- الإصلاح: قال ابن دريد توفي (321هـ):"وعمارة الشيء: إصلاحه (ابن دريد، 1991م)ونقول: عمرت المكان أعمره عمارة: إذا أصلحته (ابن دريد، 1991م)

ث- الإقامة: يقال عمرنا بالمكان نعمر به إذا أقمنا فيه (ابن دريد، 1991م) ومن معنى البنيان وما يعمر به البلد ويحسن حاله (ابن منظور الافريقي)وعَمِرَ بالمكان إذا أقام به، والعامر، المقيم (ابن السكيت، 1998م) ويذكر الأصفهاني في معنى العمارة أنها: نقيض الخراب (الاصفهاني ، 2007م)إذ الإقامة لا تكون إلا في مكان وأرض.

ج- الدلالة الاصطلاحية العامة لمصطلح العمران:

أشار المفسرون وعلماء الأمة إلى كثير من الدلالات الاصطلاحية لمصطلح العمران، بل شكل مركز الرؤية وحجر الزاوية في الإبداع الخلدوني ضمن المنظور التاريخي والاجتماعي (عمارة، 1986)، وأيضا في الإبداع الشاطبي ضمن المنظور المقاصدي لكليات الشريعة.

-تعريف الطبري:

{واستعمركم فيها}، (هود:61)، وجعلكم عمارا فيها فكان المعنى فيه أسكنكم فيها أيام حياتكم (الطبري، 1999) يدل الاستعمار الإلهي للخلق في الأرض على الإسكان والإقامة والحياة، وفيه معنى دلالة العمران على الحياة والاستقرار، فلا معنى لعمران بلا استقرار.

-تعريف القرطبي: {استعمركم فيها}، (هود:61)، أي جعلكم عمارها وسكانها. (القرطبي، 2006م).

- تعريف ابن العربي: "قال بعض علماء الشافعية الاستعمار طلب العمارة والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب.

(القرطبي، 2006م)

-تعريف الطاهر بن عاشور: في تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: {واستعمركم فيها}، (هود :61)

والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامريها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق. ومعنى الإعمار انهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعد تعميرا للأرض حتى سمي الحرث عمارة لأن المقصد منه عمر الأرض

(ابن عاشور ، 1984)

-تعريف المؤرخ العلامة ابن خلدون (توفي 808هـ):"التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما فيه من طباعهم من التعاون على المعاش. ومن العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي والجبال ...ومنه ما يكون حضريا، وهو الذي في الأمصار والقرى والمدن والمدائر –ج مدر–للاعتصام بها والتحصن بجدرانها. (ابن خلدون، 2006م)

-تعريف فريد الأنصاري (توفي 2009):

يقول رحمه الله: «ليس المقصود بالعمران في اصطلاح هدا الكتاب هو تخطيط البناء المادي وهندسته فحسب، كلا. وإنما المقصود به هندسة المذهبية الحضارية الكامنة في الإنسان. التي كان بمقتضاها كما كان.

العمران إذن: هو بناء الإنسان، بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي. (الانصاري ، 2007م)

-تعريف مسفر بن علي القحطاني:" إن مفهوم العمران ليس مفهوما ماديا بحثا، وإنما هو أثر لقوة العلم والقيم وعمق الوعي بسنن التحضر والمدنية، وأكثر نصوص الوحي كانت لهذا البناء الإنساني أولا، وإيجاد المستلزمات الضرورية لإصلاح معتقده ونفي صور الانحرافات الشركية والكفرية من عقله وسلوكه، وتنقيته من رواسب الجاهلية وأخلاقياتها المادية. (القحطاني، 2008م)

تؤكد هذه التعريفات على ارتباط العمران وعمارة الأرض برسالة المسلم في الحيات وحيويته وايجابيته المنتجة للخير والمعروف المادي والمعنوي.

المبحث الثاني: حد العمران في القرآن الكريم:

لفظ (العمران) من حيث هو اسم ومصدر لم يرد في القرآن ولكن وردت اشتقاقاته وما يدل عليه، فورد لفظ: «عمارة"، و"عمر" و"استعمر" و "عمّر" و"معمر" و"المعمور " و "العمر" و "عمرك " و "العمرة" و"عمران". وقد ذكرت هذه الألفاظ في تسعة عشر موضعا في خمس وعشرين مرة، توزعت على خمس عشرة سورة من القرآن: أربع سور مدنية هي: البقرة، وآل عمران، والتوبة، والتحريم، وتسع سور مكية وهي: يونس، وهود، والحجر، والنحل، والأنبياء، والشعراء، والقصص، والروم، وفاطر، ويسن، والطور. وقد ورد لفظ العمران باشتقاقه حسب المعاني الآتية:

-على صيغة اسم علم:

قال سبحانه وتعالى:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} (ال عمران :33).

وقال سبحانه وتعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (آل عمران:35).

وقال عز وجل: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} (التحريم :13).

-بمعنى عمران المساجد وخدمتها:

قال سبحانه وتعالى:

{مَاكَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْ كُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} (التوبة:17).

وقال سبحانه وتعالى:

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} (التوبة:18).

وقال عز وجل:

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ا لْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ

لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (التوبة:19).

-بمعنى الحياة:

قال سبحانه وتعالى: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} (الحجر:72).

-بمعنى نسك العمرة:

قال الله سبحانه وتعالى:{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(البقرة:196).

مما سبق نستطيع أن نستخلص نتائج على النحو الآتي:

العمران مصطلح قرآني ذو أبعاد متساندة تشكل في حد ذاتها منظومة خاصة من المعارف والقيم، لا يمكن تحقيق كفايتها الاستيعابية إلا باستحضار مفهوم الاستخلاف، في علاقته بمفهوم التسخير، فلا يتحقق العمران بالمعنى القرآني إلا بإطلاق الفعالية الاستخلافية، والتسخير في اتجاه العبودية لله تعالى.

وإذا كان العمران مرتبطا بعبادة الله تعالى وهما ينتظمان معا للاضطلاع بتمكين الإنسان من القيام بمقتضيات الاستخلاف، فإن هذا العمران لا يكون إلا وفق أبعاد متكاملة: ايمانية ورسالية ومادية تحصنها قيم التقوى والعدل والمسؤولية والصلاح والإصلاح.

المبحث الثالث: مقاصد القرآن وسنن العمران:

كل نشاط يتصل بالقرآن الكريم ينبغي أن يسترشد بمقاصد القرآن الكريم وغاياته الكبرى، فهذه المقاصد والغايات هي وجهة كل نشاط حياتي أو حضاري يستمد من القرآن الكريم منهجه، ويروم تحقيق رسالته في هداية الناس للتي هي أقوم.

وهذا المنهج المقاصد في التعامل مع القرآن الكريم هو سبيل العقل المسلم في الخروج من ربقة التبعية والتقليد إلى رحاب الاجتهاد والتفكير والتجديد، مع وعي بالفرق بين الثوابت والمتغيرات التي كثيرا ما انجر عن الالتباس بينها مشكلات حالت بين المسلمين وبين المنشود من الآمال، وشوهت نظرة المسلمين إلى حقائق الدين، ونظرة غيرهم إليهم ودينهم.

ومن هنا ندرك أن موضوع مقاصد القرآن يتنزّل في صلب القضايا والمشكلات التي يواجهها المسلم المعاصر الذي تتنازعه مطالب الشرع المحكوم بالنص، وإكراهات الواقع بمتغيراته ونوازله.

أول مفاتيح المنهج المقاصدي هو النظرة الشاملة للقرآن الكريم، فهذه النظرة الشاملة هي منطلق أساسي لفهم نصوص القرآن وتدبرها، ومتلقي القرآن وفق هذا المنهج المقاصدي "يتجاوز بفكره ونظره ما يبحث عنه الآخرون من موضوعات وأمور جزئية جانبية، وهو وإن كان يجدها في أثناء التعامل معه، فإنما تمثّل بالنسبة إليه نظرات ثانوية مكملة للنظرة الشاملة ومتمّمة أحلها، تزيدها مكاسب وعلوما ومعارف" (الريسوني، 2010)

وتتحقق النظرة الشاملة للقرآن بالالتفات إلى الأهداف الأساسية التي جاء القرآن ليُرسيها، والمحاور الكبرى التي دارت حولها سوره وآياته، ولا شك أن لهذا المنهج في التعامل مع القرآن الكريم فوائد جمة وثماراً جليلة. وانطلاقا من الأغراض الأساسية للقرآن وتطبيقا للمهمة العملية الحركية له، فإن القارئ البصير لا بد أن يلاحظ البعد الواقعي لآيات القرآن وأن يلتفت إلى انطباقها على الواقع المعاصر، وأن يدرك معالجتها له وتقويمه لأموره، وإصلاحها لمناهجه ومظاهر الحياة فيه، وسيجدها حينئذ تصف له حياته، وتتحدث له عن واقعه، وتهتم بالقضايا والمشكلات التي حوله، وسيجدها سورا حيّة حكيمة متفاعلة قائدة وموجّهة. (الخالدي، 2002م).

وأُولى هذه الثمار هي " النظرة المتوازنة لحقائق الدين وما يتصل به من مجالات الحياة، فلا يؤخّر ما حقُّه التقديم، أو يقدّم ما حقُّه التأخير ولا يصغِّر الأمر الكبير، ولا يكبّر الأمر الصغير، بل يراعي النِّسَبَ بين الأعمال والتكاليف الشرعية" (القرضاوي ، 1990م)

ومن هذا المنظور يمكن إجمال المقاصد الكبرى للقرآن في محورين:

-محور اعتقادي يتعلق بتصحيح التصور بشأن الخلق والوجود والحياة والمصير.

-ومحور عملي يتعلق بتحقيق مهمة الاستخلاف والعمران والإصلاح في الأرض، وفق الضوابط والتصورات التي ينطوي عليها المحور الاعتقادي.

وقد اجتهد بعض المفكرين المعاصرين في إبراز هذا الجانب من خلال إعادة النظر في أقسام مقاصد القرآن، ليكون مقصد العمران من بين المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، ويعد طه جابر العلواني، أبرز هؤلاء المفكرين الذين سَعَوْا إلى إظهار وجوب الاهتمام بهذا المقصد وإفراده بالبحث والتوسيع والإثراء. يقول: " لو استقرأنا آيات الكتاب الحكيم كلَّها وأخذناها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ،وقمنا بدراستها وتحليلها عدة مرات محاولين حصر المقاصد والقيم العليل الحاكمة التي جاء القرآن المجيد من أجل إرساء دعائمها فما الذي نجد ؟ نجدها ثلاثة في حدود ما وصلنا إليه:

-القيمة العليا الأولى: التوحيد.

-القينة العليا الثانية: التزكية.

-القيمة العليا الثالثة: العمران" (العلواني، 2010م)

* -سيد قطب، (1419هـ-2002م)، في ظلال القرآن، ط 27، دار الشروق، القاهرة، ج 8 ص33.

وبهذا التقسيم المحْدث تمكَّن العلواني من تجديد النظرة التقليدية للمقاصد التي سادت منذ القديم، وانصبت جهود العلماء فيها على البحث عن حكم التشريع وغاياته لإثبات أن كل التشريعات ذات حِكَم ومقاصدَ وغاياتٍ، وأنها قائمة على حفظ المصالح ودرء المفاسد، إذ الواقع المعاصر يتطلب اهتماما خاصا بمقاصد القرآن العليا القادرة على توليد أحكام للمستجدات، والراهن من القضايا والمشكلات، والمستحدث من النوازل والتحدِّيات.

ولا شك أن مقصد العمران هو من أهم الإضافات التي قدمها العلواني في موضوع مقاصد القرآن، لا سيما وأنه انطلق من موضوع التدبُّر ببيّن أن هناك تلازما تاماّ بين تدبر القرآن وتدبير العمران، فالتدبر يؤسّس للعمران ضوابطه ومحدّداته، فيكون العمران من نواتج التدبر (قطب، 2002م) ومخرجاته.

ومن شأن المقاصد العليا الحاكمة –حسب الدكتور طه جابر العلواني –أن "تساعدنا أيضا على تطوير نظرية معرفية عامة في العلوم الشرعية كلها، وكذلك في العلوم الاجتماعية أو علوم العمران، وهي تسمح أيضا بتطوير الثقافات المحلية والقومية، وتستطيع استيعابها، كما تستطيع إيجاد نسق حضاري موحد يسمح بقيام مجتمع عالمي قادر على استيعاب وتجاوز الخصوصيات الثقافية والمحلية والقومية، وإقامة مجتمع لهدى والحق".

والمتأمل لآيات القرآن يجدها تدعو بوضوح إلى عمارة الأرض وفق منهج الله، والاستفادة مما فيها من نبات وحيوان وشمس وقمر ونجوم سُخّرت كلُّها للإنسان ليقوم بما عُهد إليه من رسالة الاستخلاف العظيمة التي اقترن فيها التشريف بالتكليف. ولا يمكن أن نتصور استخلافاً في الأرض من دون عمارة لها واخذ بأسباب القوة والاستفادة مما سخر الله فيها من مخلوقات.

وإن من دلائل كون العمران من مقاصد القرآن أن دعوة الرسل إلى الإيمان والتوحيد وعبادة الله تقترن بالدعوة إلى الإصلاح في الأرض والنهي عن الفساد. ومن هنا فإن مفهوم العمران في القرآن لا ينفصل عن معنى العبودية والخضوع لأمر الله والسعي في أداء أمانة الاستخلاف، فهو عمران رسالي ينافي العلو والاستكبار والطغيان.

ومن النماذج القرآنية التي يجدها المتدبّر وقد جمعت بين قوة العمران ورسوخ الإيمان ذو القرنين الذي لم يسخّر ما آتاه الله من قوة الأسباب والتمكين إلاّ في إشاعة العدل ونصرة الضعفاء. وفي قصة السد الذي ذكرت في سورة الكهف إشارة إلى ما يمكن للقوة الحضارية المسدَّدة بتعاليم الوحي، أن تقود إليه من رَفْد ينصر الضعيف.

وهكذا فإن القرآن الكريم يحفل بالحديث عن الوقائع والنماذج التي ترسم أمام المتدبّر معالم واضحة للعمران الرسالي الذي يجمع بين إقامة الحضارة والعمران والقيام بحق الرسالة والإيمان.

الخاتمة:

يدعو السياق الحضاري الراهن الذي تعيشه الأمة الإسلامية إلى إبراز فقه العمران، والتوجه نحو صياغة ذهنية إسلامية تفهم الرسالة الحضارية للإسلام بكل شمولها للمجالات العبادية والعمرانية، وتسخير الكون هو نوع من التكريم للإنسان، يحمله مسؤولية المهمة الكبرى لجعل المسَخَّرات عونا في عمارة الأرض وبنائها وحسن الإقامة فيها لتحقيق مقصد الاستخلاف، والنجاة من التيه المنهجي والمعرفي والقيمي الذي هو عنوان خراب العمران الإنساني المعاصر.

ولا شك أن ترسُّم مقاصد القرآن، وتمثل معانيه واستثمار كل الأبعاد التي ينطوي عليها، هو الخطوة الأولى في مسيرة استئناف الشهود الحضاري والقيام بحق الشهادة والسير في رحاب التدبر إلى آفاق التدبير،

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن كل محاولة للنهوض الحضاري لا تتأسس على القرآن الكريم، ولا تستند بوضوح إلى روحه ومقاصده محكومة بالفشل، لأنها تضل حينئذ عن سر استنهاض قوى الأمة الكامنة، وروحها القابلة للانبعاث متى أدركتها شروطه.

المراجع.

- ابن السكيت. (1998م). كتاب الألفاظ. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
- ابن جزيء الكلبي. (1989م). التسهيل لعلوم التنزيل. بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- ابن خلدون. (2006م). المقدمة. القاهرة: دار النهضة.
- ابن دريد. (1991م). الاشتقاق. بيروت: دار الجبل.
- ابن منظور الافريقي. (بلا تاريخ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- أبو حامد الغزالي. (1986م). جواهر القرآن. بيروت: دار إحياء العلوم.
- احمد ابن فارس. (2001م). معجم مقاييس اللغة. بيروت: دار إحياء الثرات العربي.
- أحمد الريسوني. (2010م). الفكر المقاصدي وقضايا السياسة المعاصرة. المنصورة: دار الكلمة.
- الراغب الاصفهاني . (2007م). الذريعة إلى مكارم الشريعة. القاهرة: دار السلام.
- الطاهر ابن عاشور . (1984م). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.
- الطبري. (1999م). جامع البيان عن تأويل أي القرآن. بيروت: دار الفكر.
- القرطبي. (2006م). الجامع لأحكام القرأن. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- جلال الدين السيوطي. (2004م). الاتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتاب العربي.
- سفر بن علي القحطاني. (2008م). الوحي المقاصدي قراءو معاصرة للعمل بمقاصد الشريعة في مناحي الحياة. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- سيد قطب. (2002م). في ضلال القرآن. دار الشروق: القاهرة.
- شهاب الدين الألوسي. (2002م). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت: دار إحياء الثرات.

- صلاح عبد الفتاح الخالدي. (2002م). مفاتيح التعامل مع القرآن. دمشق: دار القلم.
- طه جابر العلواني. (2010م). أفلا يتدبون القرآن،معالم منهجية في التدبر والتدبير. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- عبد الرحمان الثعالبي. (1997م). الجواهر الحسان في تفسير القرآن. بيروت: دار إحياء الثرات.
- عبد الكريم الحامدي. (2008م). مقاصد القرآن منم تشريع الأحكام. بيروت: دار ابن حزم.
- عز الدين بن عبد السلام. (2002م). قواعد الأحكام في مصالح الأنام. القاهرة: دار البيان العربي.
- علال الفاسي. (1993م). مقاصد الشريعة ومكارمها. بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- فخر الدين الرازي. (1981م). التفسير الكبير. بيروت: دار الفكر.
- فريد الانصاري . (2007م). النظرية بعثة التجديد المقبلة من الحركو الاسلامية إلى دعوة الاسلام. المغرب: منشورات رسالة القرآن.
- محمد بن أبي بكر الرازي. (2003م). مختار الصحاح. بيروت: المكتبة العصرية.
- محمد عمارة. (1986م). الاسلام والأمن الإجتماعي. بيروت: دار الشروق.
- يوسف القرضاوي . (1990م). أولويات الحركة الاسلامية في المرحلة القادمة. القاهرة: دار الشروق.